المثالية والواقعية في الإسلام

د . حميدالله عبدالقادر *

تفرّدت الدعوة الإسلامية عن غيرها من شتّى الدعوات والأديان الأخرى بخصائص كفلت لها البقاء والدوام . من هذه الخصائص التي انفردت بها الدعوة الإسلامية " الجمع بين المثالية والواقعية في شكل محكم رائع " .

فما هي المثالية والواقعية ؟ وكيف جمع الإسلام بينهما ؟

لا نعني بالمثالية أن الإسلام يحلق بتعاليمه في مثالية خيالية لا وجود لها إلا في عالم الأحلام ، أو أنه يبني شرائعه وأحكامه في مملكة الخيال حتى إذا اصطدم بالواقع أصبح سراباً .

كلا .. فتلك مثالية خيالية يعرفها دارسو الفلسفة ، وعيبها أنها بعيدة عن واقع الإنسان وما ركب فيه من غرائز ونزعات ، وما يعتوره من نقص وقصور ، والإسلام دين واقعي أبعد ما يكون عن خيال الفلاسفة وأحلام الحالمين .

وإنما نعني بالمثالية أن الإسلام يحرص على إبلاغ الإنسان أعلى أفق ممكن من المستوى العالي الرفيع ، في يسر وراحة وطمأنينة ، كالشمس تراها عالية أمام العيون لكنها تلتقي مع واقع الناس ومع أقل المخلوقات وأضعف الكائنات وأبسطها تمد الجميع بما لديها من خير وتشمله بالحرارة والنور ، وهي محتفظة بسنائها وسموها ومكانتها ومكانها ..

إن الإسلام ينشد لمعتنقيه الكمال والمثل العليا دائما ، لكنه يطلب ذلك بأسبابه ويسعى إليه من بابه ولا يكلف الناس شططا ، ولذلك كان الصعب فصل المثالية عن الواقعية في الإسلام ، وإنما هما شرعة للبشر متكاملة تنير لهم سبل الخير وترسم لهم قواعد السلوك وقوانين المعاملات .

وكذلك لا نعني بالواقعية الرضا بالواقع أيّاً كان وضعه أو صورته ، أو أن الإسلام يطوع مبادئه لتوافق على أي لون ، أو لتساير الواقع على أي شكل كلاّ ...

فالإسلام لم يجئ ليربت على شهوات الناس وأنظمتهم أو ليرضى بأوضاعهم المختلة وتقاليدهم المعوجة ، وإنما جاء ليلغي كل أشكال الجاهلية ونظمها ، ولينشئ من ذات نفسه نظاما خاصا به ، كونه يتشابه في جزئيات مع واقع الناس أو لا تتشابه ، هذا أمر عارض والمهم هو في الأصل الذي يقوم عليه النظام أو المنهج .

ونظم الإسلام مناهجه تقوم على أساس أن الأمر كله لله ، فهو الذي يشرع ويقنن ويحلل و يحرم ، أما سائر الأنظمة الأخرى فهي تقوم على أساس أن البشر هم الذين يشرعون لأنفسهم بمعزل عن شرع الله ووحيه ، وتوجيهه وأمره ، فهما منهجان متناقضان .

وكذلك لا نعني بالواقعية الاعتماد على الواقع الذي تدركه الحواس فقط ، ونبذ كل ما لا تؤيده التجربة . لا نعني بالواقعية هذا ولا ذاك .. وإنما نعني بها مراعاة ظروف الإنسان وفطرته وحدود طاقته ، وطبيعة تكوينه ، وواقع حياته ، وذلك من حيث :

- أنه مخلوق من مادة وروح ، وللروح أشواقها وللمادة مطالبها .
- أنه يعيش على الأرض ، ويأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، ويتزوج ويتناسل .
- أنه ذكر وأنثى ، تختلف حاجات وميول كل منهما .
- أنه فرد مستقل في نفسه ، أوفرد مشترك مع غيره .

كل هذه الأمور - وكثير غيرها - راعاها الإسلام وكيف أحكامه الفرعية تبعا لها حتى تنطلق مسيرة الحياة في توازن مستقر ، ولا تتعطل أو تتهدد مصالح العباد .

وفي ضوء ذلك التعريف لكل من المثالية والواقعية ، جعل الإسلام حداً أدنى أو مستوى أدنى من الكمال لا يجوز الهبوط عنه ؛ لأن هذا المستوى ضروري لتكوين شخصية المسلم على نحو معقول ، ولأنه أقل ما يمكن قبوله من المسلم ليكون في عداد المسلمين ، وقد شرع هذا المستوى على نحو ما يستطيع بلوغه وأداءه أقل الناس استعدادا لفعل الخير وابتعادا عن الشر ، هذا المستوى ينكون من الفرائض الواجبة والمحرمات المنهي عنها .(١) وهذه الفرائض والمحرمات جعلت بحيث يستطيع كل واحد الوفاء بمقتضاها ، وعند الضرورات تراعيها الشريعة وتقدرها قدرها .

وبجانب هذا المستوى الإلزامي الواجب بلوغه إلى كل مسلم أن الشريعة وضعت مستوى آخر أرفع منه وأوسع ، ورغبت فيه الناس وحببت إليهم بلوغه . وهذا المستوى العالي يشمل المندوبات وأنواع القربات التي ترغب الشريعة في القيام بها ويشمل كذلك المكروهات والمشتبهات التي ينبغي تنزه المسلم وابتعاده عنها (٢) ولكن الوصول إلى ذلك المثل يحتاج إلى جهد ضخم لا يتيسر لكل الناس .

لذلك لا يفرض الإسلام هذا المثل الأعلى على الجميع فرضا ولا يلزمهم جميعا به بل يرسمه أمامهم ، ثم يتركهم لطاقاتهم (لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا) (٣) ويتقبل من كل ما يتقدم به على قدر جهده (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّاعَمِلُوْا) (٤) .

إنه يحبب إليهم الصعود والارتفاع ، ولكنه يدعهم يتطوعون بذلك ، ثم يثيبهم بقدر ما تطوعوا جزاء في الآخرة ، فلا يظلم ربك أحدا ، ولا يقسره على ما لا يقدر عليه ، ونضرب على هذا التعقيد لكل من المستويين الأعلى والأدنى بعض الأمثلة :-

١- يأمر الإسلام المسلمين بأداء خمس صلوات في اليوم والليلة ، بحيث لا يقبل من المسلم أداء بعضها أو التقصير فيها ، ثم يفتح أمامهم باب النوافل والمندوبات لأصحاب الهمم العالية التي تريد التسامي إلى افاق عليا لتقترب من الملأ الأعلى الذي يفيض عليها بركاته ونفحاته ما تغتبط عليه وتغبط به ، وفي الحديث القدسي : " ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ، ورجله الذي يمشي عليها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه " (٥) .

٢- فرض الإسلام على المسلمين صيام شهر واحد في العام ما يستثنى من ذلك إلا أصحاب الأعذار على أن يقضوه (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيْضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) (٦) .

٣- فرض الإسلام أيضا الزكاة ، لكنه حبب معها الإنفاق في سبيل الله (مَنْ ذَا الَّذِيْ يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيْرَةً) (٧) .

٤- كما أباح الإسلام للناس أن يأخذوا بثأرهم ولكنه حبب إليهم العفو (فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيْهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوْفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ) (٨) (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ) (٩) .

٥- كما يبيح لهم الاستمتاع بطيبات الحياة ، ولكنه يحبب لهم أن يتخففوا منها ، ويرتفعوا عليها ، ويتجهوا إلى نعيم الروح (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِيْنَ وَالْقَنَاطِيْرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ . قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذلِكُمْ لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، خَالِدِيْنَ فِيْهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللّهِ) (١٠) .

وهكذا يفتح الإسلام باب التطوع ، والارتقاء إلى المثالية ، ولكن ليس على سبيل الإلزام وإنما على سبيل الاختيار ، فذلك أفعل في تربية النفس ، وأدعى إلى تحقيق الغاية (١١) ، لأن المتطوع يشعر بلذة عميقة في تطوعه ، تعوضه عن المشقة التي يحتملها ، وتحبب اليه الاستمرار فيه ، لذة لا يستشعرها من يؤدي واجبا مفروضا عليه ، فتستجيب النفس بأقصى طاقاتها ، وتصل في ارتفاعها إلى ما يشبه المعجزات .

ولقد أوجد الإسلام بمنهجه هذا في التربية جيلا من البشر قلّ أن يجود الدهر بأمثالهم ورفعهم إلى الذروة العليا من الكمال ، مستوى تتطلع إليه الأبصار فيبهرها ضوؤه وعظمته وسناه .

وإليك بعض النماذج التي تبين لك مثالية الإسلام - وواقعيته في آن واحد - نماذج تتحدث عن أشخاص مثاليين يفتخر بهم التاريخ الإسلامي لأنهم وصلوا إلى مستوى من الكمال يظنه بعض من لا يدركون ضرباً من الخيال ..

هذا أبوبكر رضي الله عنه يتولى الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكم للولاية من مسئوليات جمعة ، ومشاكل مشغلة ، لكن الرجل الكبير ، صاحب القلب الكبيرلا تشغله هذه المسئوليات عن خدمة نسوة الحي العجائز ، فلما ولي الخلافة قالت بنات الحي ، لا يحلب لنا أبوبكر منائح دارنا ، فبلغ ذلك أبابكر الصديق ، فقال : بلى والله لأحلبنها لكم . فكان يحلبها كل يوم ، ويسأل المرأة : أأرغي أم أصرح ، أجعل الحلاب له رغوة أم صافيا بدون رغوة ؟ فأي ذلك قالته فعل . (١٢)

و عمر بن الخطاب الذي تأخذ على الإنسان جوانب العظمة فيه فلا يدري بأيها يأخذ وبأيها يترك ، لكننا رغبة في الإيجاز نكتفي بمثال:

روى ابن الجوزي في تاريخ عمر بن الخطاب عن أنس قال : " كانت بطن عمر تقرقر عام الرمادة من أكل الزيت ، وكان قد حرم على نفسه السمن ، قال : فكان ينقر بطنه بإصبعه ويقول : قرقري أو لا تقرقري فوالله لا تأكل السمن حتى يأكله الناس " . (١٣)

فانظر كيف يحس الحاكم بمشاكل شعبه ، ولا يتميز عليهم في طعام أو لباس ، وهو الذي لو شاء أن يتوسع لتوسع فهو القائل : " والله إني لو شئت كنت من ألينكم طعاما وأرقكم عيشا ، ولكني سمعت الله تعالى عبر قوما بأمر فعلوه فقال :

(أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِيْ حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا) (١٤) .

وعثمان بن عفان يرى المسلمين وقد انقطعت مواردهم في أيام أبـي بكر ووقعوا في ضايقة اقتصادية شديدة ، ثم تجيئه العير محملة ببضائع كان استوردها من الشام فلم يبع عثمان رضي الله عنه هذه الأموال ، بل تصدق في سبيل الله ، ويقول للتجار : إن الله أعطاني عشرة أمثالها ، ثم يقسم : لأتركنها خالصة للمسلمين يرد بها عنهم غائلة الحاجة . (١٥)

وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، يمكنه الله من أحد أعدائه في إحدى المواقع حتى ليجلس على صدره ويأخذ بسيفه ، وفجأة ينهض عنه ، ويتركه طليقا ، ويعجب رجل من المسلمين كان يراقب الحادث ويسأله : لم تركت عدوّ الله ، وقد أمكنك الله منه ؟ فيقول : حين هممت أن أجتز رأسه بصق في وجهي ، فخشيت أن أنا فعلت أن أكون قد قتلته غضبا لنفسي لا لله .

فإذا كان يفرض على عليّ هذا التصرف النبيل ، الذي يقرب من الأساطير ، إن هذا العدو كان حريّاً أن يعود فيقتله ، وعليّ رضي الله عنه يعلم ذلك دون شك ، ولكنها المثالية السامية والنظافة الكاملة داخل هذا الضمير . (١٦)

وغير هؤلاء كثير وكثير .. إنهم لم يكونوا يعيشون في أديرة أو صوامع ولم يحرموا على أنفسهم حلالا ، وإنما كانوا يحيون مشاكل أممهم الاجتماعية والسياسية والحربية .

وفي الوقت نفسه تأخذ من الواقعية ما تتضمنه من عزم وعدل وحزم ، مما يكون الذاتية الإسلامية المتميزة ، وبذلك تسير الدعوة في خط متوازن لا إفراط فيه ولا تفريط ، ولكن عدل واتزان وحكمة واتقان . فمع شواهد الواقعية ، والله المستعان : ..

أولا :- العبادات :

نظراً لظروف الإنسان وكثرة أعبائه في الحياة وما يتطلبه ذلك من السعي لطلب المعيشة والضرب هنا وهناك لرعاية مصالحه وتدبير شئونه ، ونظراً لما يتعرض له الشخص في حياته من مرض وملل ، ومن ظروف طارئة وسفر فإن الشريعة راعت في شئون العبادة ما يأتي :

(أ) قلّة التكاليف :

لم تثقل على الناس بكثرة التكاليف ، ولم تكلفهم رهقاً ، فالله الرحيم بعباده يعلم أن في عباده ضعفاً ، وأن وراءهم شغلاً لقوم حياتهم وتحصيل أرزاقهم ومن ثم كلفهم بعبادات محددة لا تستغرق كل الوقت ، ولم يطلب منهم الانقطاع للعبادة كالرهبنة المسيحية ، حتى لا يؤثر على سير المصالح ودولاب الحياة . إن الشريعة جعلت عبادة سنوية كالصوم والزكاة ، وعبادة في العمر كالحج وعبادة يومية كالصلاة المفروضة .

وإذا كانت تلك إشارة موجزة إلى الفرائض ، فتأتي النوافل والقربات لمن أراد أن يترقى في ميدان الأعمال الصالحة (فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ) . (١٧)

(ب) التنويع والتلوين :

عرف الإسلام طبيعة الملل في الإنسان ، فغاير بين أنواع العبادات وأشكالها ، مابين عبادة بدنية كالصلاة والصيام ، وعبادة مالية كالزكوات والصدقات وثالثة جامعة بينهما كالحج والعمرة ، حتى لايسأم الإنسان من عبادة واحدة رتيبة لا تتغير.

(ج) الرخص والتخفيفات :

كما شرعت الشريعة الرخص والتخفيفات في العبادة ، وذلك حين تعرض للإنسان ظروف تقعده عن أداء العبادة في صورتها الكاملة ، وذلك لظروف المرض والسفر ونحوهما .

١- *تخفيف الإسقاط* : وذلك كإسقاط الحج والصوم والجهاد ونحوهما من العبادات كصلاة الجمعة مثلاً ، كل ذلك بأعذارمفصلة في كتب الفقه الإسلامي .

٢- *تخفيف بالتنقيص* : مثل قصر الصلاة الرباعية للمسافر إلى اثنتين .

٣- *تخفيف بالإبدال* : كإبدال الوضوء والغسل بالتيمم عند فقد الماء أو المرض

٤- *تخفيف بالتقديم والتأخير* : كتقديم صلاة العصر إلى وقت الظهر ، وكتأخير صلاة المغرب إلى وقت العشاء عند حصول الأسباب المبررة لذلك .

٥- *تخفيف بالتغيير* : وذلك كتغيير هيئة الصلاة المعروفة وقت خوض المعركة مع العدو ، أو الخوف منه .

هذه بعض مظاهر اليسر والسماحة للشريعة في العبادات ، ومراعاتها لواقع الإنسان وما يعتوره عن ظروف .. لكن لابدّ من وقفة هنا لتوضيح أمر قد يتبادر إلى

بعض الأذهان ، فتتأوله أغراض وتميل به أفهام .. وهو أنه ليس معنى التخفيف في الإسلام أن هذا الدين لا يعود أتباعه إلا على السهل الخفيف دائما ، فيقتل في نفوسهم روح الرجولة والجد والإقدام ، ويعودهم على الطراوة والمستويات الدنيا .

لا ، إن الإسلام يأخذ أتباعه بالتكاليف التي تبني الفضائل ، وتصعد إلى الكمال وتتيح للخصائص العليا في الإنسان أن تنطلق . لكن الإسلام - بمعرفته ضعف الإنسان وعجزه في كثير من المواطن - يراعي هذه الظروف ويشرع ما يناسبها خفة وتيسيراً على الناس .

فتراه يقول للشخص المريض إذا لم تستطع الصلاة قائماً فصلّ قاعداً ، فإن لم تستطع فصلّ راقداً ، فإن لم تستطع فبالإيماء .. وتراه يقول للمسافر صلّ قصراً ، وإن كنت صائماً أفطر ، لماذا ؟ لمشقات السفر ومتاعبه التي يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيها : " السفر قطعة من العذاب " .(١٨)

إذن فهو من باب تقدير الظروف لا أكثر ، ومع ذلك فهو يحلق أنظارهم إلى أعلى دائما فيقول : (وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) .(١٩)

ولعله من المفيد هنا أن نلقي ضوءاً خفيفاً على المشقة وصورتها في الشريعة الإسلامية نوعان :

١- نوع محتمل يتلاءم مع طاقة الإنسان وفطرته ، وهذه لا يسعى الشرع إلى إسقاطها عن الإنسان أو إزالتها ، لأنها نوع من المشقة العادية التي لا تكلّف الإنسان رهقاً أو عنتاً ، وهي إن حدث بها نوع تعب في أدائها إلا أنه لا يوجد حرج يصعب تحمله في فعلها ، وذلك كسائر الجهود العادية والمشقات المطاقة عند أداء الصوم والحج وغيرهما .

٢- ومشقّة خارجة عن طاقة الإنسان وقوة احتماله ، وهذه رفقها الله فضلاً وكرماً عن المسلمين ، وذلك كالوصال في الصوم وفرض التهجد ليلاً ، قال سبحانه : (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) .(٢٠) ومن أدعية القرآن التي علّمها المؤمنين : (رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ) .(٢١) مع أن هناك شواهد وآثار إلى أن الأمم السابقة كان فيها بعض الأصر والمشقات ، لكن ذلك رفع عن الأمة الإسلامية تخفيفا من الله وتيسيرا ، وفي الحديث : " رفع عن أمتي من الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " ، (٢٢) كما علمنا القرآن الكريم هذا الدعاء من

خواتيم سورة البقرة (رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا).(٢٣)

ومن الأمور التي كانت موجودة في سالف الأمم ما يلي :

١- الجزء النجس من الثوب يجب قرضه .

٢- تحريم الانتفاع بغنائم الحرب .

٣- تحريم العمل يوم السبت .

٤- عدم قبول الدية بدل القصاص .

٥- الأمر بقتل أنفسهم علامة على التوبة :

(فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) . (٢٤)

٦- تحريم بعض لحوم الحيوانات وشحوم بعض آخر . (٢٥)

هذه الأمور كلها لأجل البغي والفساد من قبل الأقوام السالفة . ومن هذه الأمور المتشددة أيضا ما جاء في سفر الخروج (٢٦) : " من ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا " و " من شتم أباه أو أمه يقتل قتلا " . وفي سفر العدد " من مسّ ميتة إنسان ما يكون نجسا سبعة أيام " (٢٧) ، " وكل إناء مفتوح ليس عليه سداد بعصابة فإنه نجس " . (٢٨)

وفي سفر اللاويين أحكام عن الحائض :

" وكل من مسّها يكون نجسا إلى المساء ، وكل ما تضطجع عليه في طمثها يكون نجسا ، وكل ما تجلس عليه يكون نجسا " . (٢٩)

· تأمل هذه الأمور لتدرك فضل الله على الأمة الإسلامية ورحمته بها ، واهتف معي : سبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ..

ولعله بعد هذا البيان عرفت ما يريحك عن واقعية العبادات الإسلامية وملاءمتها لفطرة الإنسان وتكوينه ، وأنها لم تكلفه شططا ، ولم تجنح به إلى خيال ..

ثانيا :- **الأخلاق** : كان الإسلام في أخلاقه واقعيا كذلك ، بمعنى أن ما دعا إليه من صفات النبل والكمال ليس فوق طاقة البشر ، وإنما هو في مقدورهم وفي دائرة استطاعتهم ، وذلك كالصبر على المكاره ، والعفة عن الحرام ، والصدق في القول ، والوفاء في المعاملة .. الخ .

والإسلام من الناحية الأخلاقية لا يتصور الإنسان ملكاً يمشي على الأرض ، ولا

يتلبس بمقتضيات . إنه ينظر إليه نظرة كلية ، بمادته وروحه ، وعقله وشهوته ، وعواطفه وغرائزه فيضع له من مستوى الأخلاق ما يحرره من قيود الرذائل وأغلالها ، وسفساف الأمور وأحقارها التي تقصد بالإنسان عن التصور إلى المراتب الإنسانية الرفيعة وتربط بحبال متينة نحو الأرض .

وإليك مثالا مقارناً على واقعية الأخلاق في الإسلام ، وملاءمتها لفطرة الإنسان وعدم تحليقها في عالم الخيال ..

جاء على لسان المسيح عليه السلام في بعض الأناجيل : " أحبوا أعداءكم ، باركوا لأعينكم ، من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ، من سخرك ميلا فاذهب معه ميلين ، ومن سرق قميصك فاعطه إزارك " .

هذه دعوة حارة للعفو والسماحة التي اشتهرت بها المسيحية ، وذاك أحد سماتها البارزة ، لكن إذا جاز ذلك - في مرحلة محدودة ولعلاج ظرف خاص - فإنه لا يصلح توجيها عاما خالدا لكل الناس في كل العصور والبيئات . فإن مطالبة الإنسان العادي بمحبة عدوه ، ومباركة لأعينه قد يكون شيئا فوق ما يحتمله ، ولهذا اكتفى الإسلام بمطالبته بالعدل مع عدوه (وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوْا اِعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) .(٣٠)

ثالثاً :- الشرائع : والشرائع الإسلامية واقعية أيضا ، وحتى لا يطول بنا الحديث نكتفي بمثال واحد يتعلق بموقف الشريعة من شهوات الجسم والنفس .

اعترف الإسلام بالواقع البشري على حقيقته ، فلم يكبت نوازع الجسد ، وشهولت النفس وإنما اعتراف بهما من حيث المبدأ ، ومن حيث أنهما شعور في النفس لا ينبغي كبته وصد مصادرته (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِيْنَ وَالْقَنَاطِيْرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ) ، (٣١) و (الْمَالُ وَالْبَنُوْنَ زِيْنَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) . (٣٢)

لكن الإسلام في الوقت نفسه لا يسمح للإنسان أن ينطلق من هذه الشهوات إلى آخر مدى حتى تستعبده ، وتخرج به عن إنسانيته ، فيضر بنفسه وبمجتمعه ، وإنما نظم له كيف يستمتع بلذاته من غير كبت ولا حرمان ..

(ا) فبالنسبة للشهوة الجنسية لا ينظر الإسلام إليها على أنها رجس من عمل الشيطان ، كما تذهب إلى ذلك بعض المذاهب المتزمتة ، وإنما يقرر الإسلام أن هذا

أمر قد زين للناس ، فلا نكران له ولا مطاردة ثم يرسم له الطريق المشروع الذي يكون مباحا في داخله محرما فيما وراءه ، وهو طريق الزواج الذي ندب إليه ، وجعله سنة الإسلام ، ومنع الرهبانية والانقطاع للعبادة ..

ولما عزم ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على المبالغة في العبادة ونوى واحد منهم العزوف عن النساء ، قام النبي صلى الله عليه وسلم يصحح هذا الفهم الخاطئ ويقول : " أما أني لأخشاكم عليه وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني " . (٣٣) وبعيدا عن مغالاة المتشددين الذين يحاولون كبت هذا الهاجس الجنسي وقسره على عكس ما تأباه طباعه ، كما تفعل البرهمية الهندية والرهبانية المسيحية .

(ب) وما يفعله الإسلام بالنسبة لشهوة الجسد من حيث الاعتراف بها ، وتنظيم طريقة التنفيس عنها في طريق مشروع حلال .. يفعله كذلك بالنسبة لغريزة حب المال ، التي يعتبرها أمرا مفطورا في النفس كذلك (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُباً جماً) (٣٤) (وَإِنَّه لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) . (٣٥)

ومن ثم اعترف الإسلام بالملكية الفردية .. فذلك له أثره في الابتكار والاختراع وترقية الحياة .. لكنه في الوقت نفسه لم يدع الأمر على إطلاقه فيتحول إلى رأسمالية طاغية ، وإنما وضع حدودا وقيودا على رأس المال وعلى الربح .. منها الإرث والزكاة ، وتحريم الربا ، والاحتكار ، وكل مصدر خبيث للربح .. وذلك من شأنه أن يفتت الثروة بين أكبر قدر من الأهل والمجتمع ، ويخلق نوعا من التكافل بين الناس .

وبعد : فلعلك أدركت الآن معنى الواقعية في حياة الدين ، وإنها مطابقة منهج الإسلام لواقع الإنسان وظروفه الحقيقية المحيطة به في هذا الكون ، لأن كليهما – المنهج والإنسان – صادر عن الله عز وجل ، الإنسان خلق ، والمنهج شرع الله ولا يمكن أن يتناقض شرع الله مع واقع خلق الله .

ولذلك فإن هذا المنهج الذي رسمه الله للحياة على ما فيه من سمو وارتقاء ومثالية هو في الوقت نفسه متوافق تماما مع طاقات الإنسان الواقعية ، ملتحم مع فطرته البشرية ونظام حياته ، لأنه تشريع العليم الذي لايجهل ، والحليم الذي لا

يعجل والحي الذي لا يموت ، والخبير بشئون النفس الإنسانية ودخائلها ولا يغيب عنه سبحانه شيء من أحوالها وخباياها ، مهما دق أو صغر ، أو غاب أو حضر . (أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) .(٣٦)

والبشرية لن تجد الراحة والأمان ، والسعادة الحقيقية والاستقرار إلا إذا التقت مع منهج ربها ، كما تنزل على خاتم رسله (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .(٣٧)

المراجع

١- عبدالكريم زيدان : اصول الدعوة - ص (٧١)

٢- المرجع السابق .

٣- البقرة : ٢٨٦

٤- الأحقاف : ١٩

٥- صحيح البخاري ، كتاب الرقاق : ٢/ ٩٦٣ طبع كراتشي

٦- البقرة : ١٨٤

٧- البقرة : ١٧٨

٨- الشورى : ٤٠

٩- البقرة : ٢٤٥

١٠- آل عمران : ١٤،١٥

١١- محمد قطب : الإنسان بين المادية والإسلام - ص ١٠١ ، ١٠٢

١٢- د. مصطفى السباعي : عظماؤنا في التاريخ - ص ٧١

١٣- ابن الجوزي : تاريخ عمر بن الخطاب - ص ١٦١

١٤- الأحقاف : ٢٠

١٥- الإنسان بين المادية والإسلام - ص ١٠٤

١٦- المرجع السابق

١٧- البقرة : ١٨٤

١٨- البخاري ، كتاب العمرة : ٢/ ٢٤٢

١٩- البقرة : ١٨٤

٢٠- البقرة : ١٨٥

٢١- البقرة : ٢٨٦

٢٢- ابن ماجة (ابواب الطلاق) ص ١٤٧

٢٣- البقرة : ٢٨٦

٢٤- البقرة : ٥٤

٢٥- القرطبي الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٤٣

٢٦- الأصحاح :٢١

٢٧- كالسابق

٢٨- كالسابق

٢٩- الأصحاح : ١٥

٣٠- المائدة : ٨

٣١- آل عمران : ١٤

٣٢- الكهف : ٤٦

٣٣- البخاري (كتاب النكاح) : ٢ / ٧٥٧

٣٤- الفجر : ٢٠

٣٥- العاديات : ٨

٣٦- الملك : ١٤

٣٧- المائدة : ١٥، ١٦